مجلّة بيبليا ٣١ (٢٠٠٦)

وجه الله وشموليّة الخلاص

الخوري جان عزام

أستاذ العلوم البيبلية،

كلية اللاهوت الحبرية – الكسليك

مقدّمة

من أهمّ المواضيع في نبوءات أشعيا تلك المرتبطة بإعلان وحدانيّة الله والمؤكّدة على دعوة الله كلّ الأمم إلى الخلاص. وسنبدأ بدراسة الفصل ٤٥ تحت عنوان "دعوة قورش"، لنكتشف باندهاش أنّ النبي يعطي هذا الملك ألقابًا لم تكن تُعطى إلاّ إلى ملوك شعب الله. وانطلاقًا من ذلك نحاول أن نكتشف مع أشعيا وجه الله الواحد، وإرادته في خلاص العالم كلّه.

I- دعوة قورش وخلاص الأمم (أش٤٤: ٢٤- ٤٥: ٧)

[٢٤] هكذا قالَ الرَّبُّ فاديكَ وجابِلُكَ مِنَ البَطْن: أَنا الرَّبُّ صانِعُ كُلِّ شَيء ناشِرُ السَّمواتِ وَحْدي وباسِطُ الأَرض: فمَن كانَ معي؟ [٢٥] مُبطِلُ آياتِ الضَّارِبينَ بِالفَأل ومُحَمِّقُ العَرَّافين ورادُّ الحُكَماءِ إِلى الوَراء ومُحَوِّلُ عِلمِهم إِلى غَباوة [٢٦] مُؤَيِّدُ كَلامِ عَبدِه ومُتَمِّمُ مَقاصَدِ رُسُلِه القائِلُ لِأُورَشَليمَ: "ستُعمَرين" ولِمُدُنِ يَهوذا: "ستُبنَين وأَنا اقيمُ المتَهَدِّمَ مِنها" [٢٧] القائلُ لِلْهاويَة: "إِنشَفي أَنا أُجَفِّفُ أَنْهارَكِ" [٢٨] القائِلُ لِقُورَش: "أَنتَ راعِيَّ مُتَمِّمُ كُلِّ ما أَشاء" والقائِلُ لِأُورَشَليم: "ستُبنَين" وللهَيكَل: "ستُؤَسَّس".

هكذا قالَ الرَّبّ لِمَسيحِه: لِقُورُشَ الَّذي أَخَذتُ بِيَمينِه لِأُخضِعَ الأُمَمَ بَينَ يَدَيه وأَحُلَّ أَحْقاءَ الملوك لِأَفتَحَ أَمامَه المصاريع ولا تُغلَقَ الأَبْواب. [٢] إِنِّي أَسيرُ قُدَّامَك فأَقَوِّمُ المعوَجّ وأُحَطِّمُ مَصاريعَ النُّحاس وأُكَسِّر مَغاليقَ الحَديد [٣] وأُعْطيكَ كُنوزَ الظُّلمَةِ ودَفائِنَ المخابِئ لِتَعلَمَ أَنِّي أَنا الرَّبُّ الَّذي دَعاكَ بِاسمِكَ، إِلهُ إِسْرائيل. [٤] لِأَجلِ عَبْدي يَعْقوب وإِسْرائيلَ مُختاري دَعَوتُكَ بِآسمِكَ ولَقَّبتُكَ وأَنتَ لم تَعرِفْني. [٥] أَنا الرَّبُّ ولَيسَ مِن رَبٍّ آخَر لَيسَ مِن دوني إِله. شَدَدتُكَ بِزُنَّار وأَنتَ

لم تَعرِفْني ٦ لِكَي يَعلَموا مِن مَشرِقِ الشَّمسِ ومِن مَغرِبِها أَنَّه لَيسَ غَيري أَنا الرَّبّ ولَيسَ مِن رَبٍّ، آخَر. ٧ أَنا مُبدِعُ النُّورِ وخالِقُ الظَّلام وصانِعُ الهَناءَ وخالِقُ الشَّقاء أَنا الرَّبُّ صانِعُ هذه كُلِّها.

هذه النبوءة عن قورش فريدة من نوعها وتكتسب أهميّة كبرى نظرًا إلى كونها تتضمّن كلامًا إلهيًّا إيجابيًا جدًا عن ملك غير إسرائيلي. إنّها أنشودة لإعلان رباط وثيق بين الله والملك، كما في كثير من أناشيد الكتاب المقدّس (خاصة مز ٢) ولكنّها كما قلنا تؤكّد هذا الرباط بين يهوه إله إسرائيل مع ملك غير إسرائيلي. ومضمون هذا الإعلان الإلهي هو أنّه يختار ويمسح ملكًا غريبًا لكي يحقّق إرادته الخلاصيّة في شعبه المختار!

١- المبنى

بالنسبة إلى بنية النص فمن الواضح أن ٤٤: ٢٤-٢٨ تشكّل مدخلاً للآيات ٤٥: ١-٧ التي تتضمّن النبوءة المباشرة عن قورش ورسالته. فالتعابير مثل "هكذا قال الربّ" و"أنا الربّ" هي البداية الواضحة لقول نبوي لا يعبّر عنه إلاّ في الآيات ٤٥: ١-٧، خاصة وإنّ تعبير "أنا الربّ صانع كلّ شيء" الذي يبدأ القول النبوي في ٤٤: ٢٤ يختم أيضًا القول نفسه في ٤٥: ٧: "أنا مبدع النور... أنا الربّ صانع هذه كلّها".

٢- شرح الآيات

هكذا إذًا نبدأ بشرح هذه الآيات متوقّفين عند أهمّها.

نلاحظ أوّلاً أنّ النوع الأدبي للآيات ٤٤: ٢٤-٢٨ هو نشيد المدح، أعني مدح الله ووصف ما يؤدّي إلى تمجيده، ولكن هذا الكلام موضوع على لسان الله نفسه. أمّا مدح الله فهو لكونه الخالق (آ٢٤ ب) وسيّد التاريخ (آ٢٥ ت).

فالله هو سيّد التاريخ في استمراريّة وثبات وحقّ كلامه وأعماله، بعكس آلهة الأمم والمدّعين التكلّم باسمها أو بقواها الخارقة من مثل الضاربين بالفأل والعرّافين، والحكماء... (آ٢٥). إنّه الإله الذي يُظهر بطلان كلام وأعمال هؤلاء لأنّها صادرة عن حكمة باطلة ومعرفة باطلة من آلهة باطلة وأكاذيب حول المستقبل من آلهة كاذبة. أمّا الله، فهو الذي يتمّم كلام ومقاصد عبيده ورسله المتكلّمين باسمه والعاملين بخططه. والمحتوى الأكيد لهذا المخطّط هو خلاص شعبه:

أ-بناء أورشليم. ب- بناء مدن يهوذا. ج- إعادة إعمار كلّ ما تهدّم.

وإن كان أحد يقول كيف يقدر هذا الإله القيام بكلّ هذا، وأورشليم مهدّمة وكذلك مدن يهوذا والشعب كلّه في السّبي يعاني القهر والظلم والازدراء وليس عنده ما يعيده إلى أرضه فكيف به أن يبنيها...؟ هنا يذكّرهم الله بأمرين يتخطّيان كلّ تصوّراتهم:

أ- فالبحر العظيم (الهاوية). يستطيع الله (الذي خلقه) أن يعيد إفراغه من كلّ مياهه وإنشافه بعد إنشاف كلّ الأنهار التي تصبّ فيه! فهو الذي خلق السماوات والأرض وحده! (راجع تك ١) (آ٢٤ ج-د). وهو الذي خلق الإنسان (آ٢٤ أ-ب) (راجع تك ١و٢) وافتداه (راجع تك ٣ وخر ٣-١٤) وهو الذي ملأ البحر بالمياه ويستطيع إفراغه منه كما فعل في آية عبور البحر الأحمر.!

ب- وكونه الإله الخالق فهو إله كلّ الأمم وليس إله إسرائيل وحده. ولذلك فهو يدعو من تلك الأمم من يشاء. حتى أنّه قادر أن يدعو "قورش" ملك الفرس العظيم ليخلّص به شعبه ويجعله راعيًا عليه (آ٢٨ أ). والنتيجة هي هي: الهدف من كلّ ذلك كما سبق وأعلن في (آ٢٦ ج-د): إعادة بناء أورشليم رمزٌ لإعادة بناء شعبه من الناحية المدنيّة والاجتماعيّة (أورشليم) والدينيّة (الهيكل) (راجع آ ٢٨ ب-ج).

ج- ونلاحظ هنا أنّ صفتي الله هاتين (إله الخلق – وإله التاريخ) هما المميّزتان الأساسيّتان لكلّ لاهوت الكتاب المقدّس عن الله. وإذا كان الأنبياء الذين عاشوا قبل السّبي شدّدوا على صفة الله بكونه إله التاريخ الخلاصيّ، الإله الذي أخرج شعبه من مصر وافتداه وجعله يعبر الصحراء لأربعين سنة دون أن

يموت جوعًا أو عطشًا وأوصله إلى أرض الخلاص والعبادة والشهادة له بالرغم من كلّ المخاطر التي كانت تعترضه، فإنّ أشعيا النبي الذي كتب خلال السّبي، ربط بين هذا الإيمان الراسخ بقدرة يهوه الخلاصيّة وبين الإيمان المتجدّد الذي يعترف بأن "لا إله إلاّ هذا الإله"، فهو ليس مخلّصًا إلاّ لكونه خالقًا وحيدًا للسماء والأرض، وهو لا يمكن الاعتراف به خالقًا إلاّ ممّن اختبر كلمته وأعماله في التاريخ الخلاصي.

هكذا إذًا نصل، في هذا القول النبوي عن قورش، إلى إعلان واضح عن صفة الله الخالق والمخلّص كأساس لإعلان خلاص شعبه بواسطة ملك غريب ولكنّه في خدمة الله الذي خلقه هو أيضًا وإن كان لا يعرفه باسمه كما عرفه شعب الله![1]

وهنا نصل إلى الجزء المتعلّق بقورش مباشرة (٤٥: ١-٧). أوّل ما يفاجئنا هو دعوة النبي لقورش بـ"مسيح الربّ" وهو لقب داوديّ من الطراز الأوّل وله علاقة بملك إسرائيل والتاريخ الخلاصي الذي يصنعه الله في ملوكه! فماذا يحدث؟ هل غياب الملكيّة عن الوجود ويأس النبي من تجديدها هو الذي دفعه إلى اعتبار قورش مؤهّلاً ليصبح مسيحًا للربّ؟ أم هل يأسه من المؤسّسة الملكيّة نفسها التي كانت قد وصلت إلى قمّة فسادها في حقبة ما قبل السّبي؟ أم أنّ اكتشاف الله الواحد الخالق الكلّ دفع بالنبي إلى اعتبار الملك الفارسي واحدًا من رعيّة الله ومؤهّلاً بالتالي للقيام بما عجز عنه الملوك العبرانيّون ؟ الآية الأولى إذًا تفتح على لقب المسيح وعلى عمل إلهي تجاهه وهو أنّه يأخذه بيمينه، كقوله في أحد المزامير المسيحانيّة "اجلس عن يميني فأضع أعداءك تحت قدميك" (مز ١١٠؛ دا ٧: ١٤). ثمّ يدعوه باسمه كما يدعو المسيح (آ ٣ب و٤ب) ويعطيه لقب شرف (آ ٤ب) ويشدّده ليتمّم مشيئته (آ ٥ب). تشكّل كلّ هذه العناصر ما هو معروف في طقس تتويج الملوك القدماء كما تُظهر ذلك الدراسات التاريخيّة لكتابات مصر وفارس وبابل حول تتويج الملوك.

[1] نجد لهذه الأناشيد عن تمجيد الله واختياره لقورش موازاة في بعض أناشيد بابليّة للإله "أنانا" وبعض أناشيد عن مردوك واختياره لقورش.

في مطلق الأحوال فإنّ الرسالة التي يعطيها الربّ لقورش ليحقّقها تكمن في قبضته على كلّ الأمم وإخضاعها (كما هو الوعد المسيحاني) ومن ثمّ استعمال هذه القدرة لتحرير شعب الله من أسر السّبي وإعادته إلى أورشليم. هذا كلّه يدلّ كما قلنا سابقًا على أنّ المفهوم النبوي للمسيحانيّة وللاختيار الإلهي على شعبه لا يأخذ طابعًا عنصريًا بل شاملاً هدفه الوحيد أن ينال هذا الشعب الخلاص فيصبح شاهدًا للشعوب الأخرى، وتعرف هذه الأخيرة بدورها أنّ لا إله خارج الله (آ٥ أ و٦-٧) فتطلب هي بدورها خلاصه وتناله.

هذه المقدّمة عن القول النبوي الذي يخصّ قورش تفتح لنا واسعًا موضوع الله وشموليّة الخلاص في سفر أشعيا وهو ما سنتعرّض له الآن.

II- وجه الله في أشعيا

مقدّمة

كما رأينا سابقًا في ٤٤: ٢٤-٢٨، و٤٥: ١-٧ يظهر الله في كونه خالقًا ومخلّصًا في آنٍ معًا. ولكنّنا سنرى أيضًا أنّه قدّوس شعبه في خلقه وخلاصه.

١- الله المخلّص (٤٣: ١-١٣):

والآنَ هكذا قالَ الرَّبُّ خالِقُكَ يا يَعْقوب وجابِلُكَ يا إسْرائيل: لاتَخَفْ فإنّي قَدِ افتَدَيتُكَ ودَعَوتُكَ بِآسمِكَ، إنَّكَ لي. [٢] إذا عَبَرتَ المياهَ فإنّي مَعَكَ أَوِ الأَنْهارَ فلا تَغمُرُكَ وإذا سِرتَ في النَّارِ فلا تَكتَوي ولا يَلفَحُكَ اللَّهيب [٣] لِأَنّي أَنا الرَّبُّ إلهُكَ قُدُّوسُ إسْرائيلَ مُخَلِّصُكَ وقد جَعَلتُ مِصرَ فِديَةً عنكَ وكوشَ وسَبَأَ بَدَلاً مِنكَ [٤] إذ قد صِرتَ كَريمًا في عَينَيَّ ومَجيدًا فإنّي أَحبَبتُكَ وأُسلِمُ أُناسًا بَدَلاً مِنكَ وشُعوبًا بَدَلاً مِن نَفسِكَ. [٥] لا تَخَفْ فإنّي مَعَكَ وسآتي بِنَسلِكَ مِنَ المشرِق وأَجمَعُكَ مِنَ المغرِب. [٦] أَقولُ لِلشَّمالِ: هاتِ وللجَنوبِ: لا تَمنَعَ. هَلُمَّ بِبَنِيَّ مِن بَعيد وبِبَناتي مِن أَقاصي الأَرض [٧] كُلِّ مَن يُدْعى بِآسْمي ومَن لِمَجْدى خَلَقتُه وجَبَلتُه وصَنَعتُه.

٨ أَخرِجِ الشَّعبَ الأَعْمى ولَه عَينان والأَصَمَّ ولَه أُذُنان. ٩لِتَجتَمع كُلُّ الأُمَمِ جَميعًا ولْتَحتَشِدِ الشُّعوب. مَنِ الَّذي فيهم أَنبَأَ بِذلك وأَسمَعَنا بِالأَوائِل؟ فلْيُقَدِّموا شُهودَهم حتَّى يَكونوا على حَقّ ولْيَسمَعْهمُ النَّاسُ ويَقولوا: هذا حَقّ. ١٠ أَنتُم شُهودي، يَقولُ الرَّبّ وعَبدِيَ الَّذي آختَرتُه لِكَي تَعلَموا وتُؤمِنوا بي وتَفهَموا أَنِّي أَنا هو لم يُكونْ إِلهٌ قَبْلي ولا يَكونُ بَعْدي. ١١ أَنا أَنا الرَّبُّ ولا مُخَلِّصَ غَيري. ١٢ أَنا أَخبرتُ وخَلَّصتُ وأَسمَعتُ لا غَريبَ فيكم وأَنتُم شُهودي، يَقولُ الرَّبّ، وأَنا الله. ١٣ ومُنذ اليَومَ أَنا هو ولا مُنقِذَ مِن يَدي أَفعَلُ ومَن يَرُدّ؟

لا حاجة بنا إلى التوسّع في هذا الموضوع، فهو كما قلنا سابقًا يشكّل البشارة النبويّة الكلاسيكيّة منذ ظهور الأنبياء ولا يشذُّ أشعيا عن هذه القاعدة بل إنّ كتابه، وخصوصًا الجزء المعروف بأشعيا الثاني والثالث هو في أكثره إعلانات خلاصيّة وتأكيد على عمل الله الخلاصيّ لصالح شعبه. ونعرف جيّدًا أنّ الأنبياء درجوا جميعًا على هذا اللاهوت الذي نسمّيه لاهوت التاريخ، أي تذَكُّر أعمال الله الخلاصيّة لصالح شعبه وذلك إمّا لتأكيد استمراريّة هذه الأعمال في الحاضر والمستقبل، وهي ما نسمّيه بنبوءات التعزية، وإمّا لتحذير إسرائيل من خطاياه وتنكّره لجميل الله عليه وخيانته لعهده معه، ولتأنيبه على خطاياه الحاضرة وتحذيره من العقاب الإلهي الذي لا مفرّ منه، وهو ما نسمّيه بنبوءات الدينونة والحُكم.

ولعلّنا نجد في قراءة نص أش ٤٣: ١-١٣ ما يؤكّد هذه الأبعاد كلّها بحيث أنّ النبي يؤكّد عمل الله في التاريخ الخلاصيّ القديم: "وقد جعلتُ مصر فدية لك وكوش وسبأ بدلاً منك" (٤٣: ٣ب). ويؤكّد أيضًا الخلاص الآتي لا محالة من الله الذي يحبّ شعبه (آ٤). والتعبير عن هذا الخلاص هو في عودة المسبّبين إلى أرضهم: "لا تخف فإنّي معك وسآتي بنسلك من المشرق وأجمعك من المغرب؛ أقول للشمال: هات، وللجنوب: لا تمنع! هلمّ ببنيّ من بعيد وبناتي من أقاصي الأرض، كلّ من يُدعى باسمي..." (آ ٥-٧).

٢- الله الخالق

ولاشكّ أنّ اختبار السّبي قد قاد الشعب العبري إلى اكتشاف كون يهوه الإله الذي عرفه في تاريخه الخلاصيّ ليس إله بين الآلهة أو أعظم من باقي الآلهة كما كانوا ربّما يعتقدون في السابق (Hénothéisme)، وليس هو إلههم وحدهم إلاّ لكونهم وحدهم عرفوه قبل باقي لأمم. ولكنّه في الحقيقة إله كلّ الشعوب والأمم حتّى التي لا تعرفه لأنّه الإله الأوحد بالمطلق ولا إله غيره.

طبعًا إنّ كلّ الشعوب القديمة كانت تنسب إلى آلهتها حقّ الخلق، فمردوك هو الإله الخالق في بابل وهو الذي نظّم الكون وأعاد ترتيبه بعد حربه مع تيامة وانتصاره عليها؛ وأيل هو الإله الخالق في الديانات الكنعانيّة إلاّ أنّ لبعل الفضل في إعادة النظام إلى الكون من الفوضى التي أدخله فيها "تيم"... وهكذا رَع إله مصر ومساعدته "معَتْ"... ولكنّ الشعب العبراني شدّد على صفات إلهه الخلاصيّة أكثر من إبرازه لقدراته الخلاّقة والنظاميّة، وذلك لأنّ تاريخ هذا الشعب تميّز لفترة طويلة بتنقّلاته الدائمة كشعب رعاة وبدو وحاجته الدائمة إلى إيجاد الماء والكلأ والحماية من كلّ أنواع المخاطر والحروب... لذلك فقد ركّز الأنبياء قبل كلّ شيء على صفاته كمخلّص بدءًا بتحرير هذا الشعب من عبوديّة مصر ومرورًا بمسيرته في الصحراء وهكذا دواليك... أمّا فترة السّبي إلى بابل واحتكاك هذا الشعب بالشعوب الأخرى وبأساطيرها حول الخلق وبداية الكون... وأيضًا، اختبار هذا الشعب هو أنّ إلهه حاضر معه أيضًا في منفاه وله قدرة على الوثنيّين وملوكهم... وأيضًا اختبارهم المباشر لفراغ وخواء العبادات الوثنيّة من حضور حقيقي للآلهة المزعومة في تاريخ الشعوب الأخرى واختصار العبادات على أنواع التقوى والصّلوات وطلبات المساعدة... كلّ ذلك دفع بالأنبياء وأوّلهم أشعيا الثاني إلى فهم حقيقة ساطعة: إنّ الإله يهوه هو الإله الأوحد الحقيقي والحيّ والفاعل، مع أنْ ليس له صورة أو صنم... ولكنّه الإله المخلّص والخالق في آنٍ معًا: إذًا لا إله خارجًا عنه! وكلّ آلهة الشعوب إنّما هي أصنام يصنعونها بأيديهم ولكنّها لا ترى ولا تسمع ولا تتكلّم!

هكذا إذًا تطوّر لاهوت الخلق ونال الحديث النبوي عن الله الخالق حيّزًا مهمًّا في سفر أشعيا الثاني من مثل النصوص التي نحن بصددها.

ففي ٤٤: ٦-٧: "الإله المخلّص" (ملك وفادٍ وربُّ قوّات) يعلن نفسه: "أنا الأوّل وأنا الآخر ولا إله غيري. ومن مثلي ؟ فليناددِ".

وفي ٤٥: ٥ب و٦-٧: "أنا الربّ وليس من ربّ آخر، ليس من دوني إله... لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أنّه ليس غيري؛ أنا الربّ وليس من ربّ آخر؛ أنا مبدع النور وخالق الظلام وصانع الهناء وخالق الشقاء؛ أنا الربّ صانع هذه كلّها".

وفي ٤٥: ١٨: "هكذا قال ربّ القوّات خالق السماوات هو الله جابل الأرض وصانعها الذي اقرّها ولم يخلقها خواء بل جعلها للسكنى. أنا الربّ وليس من ربّ آخر". الله خالق لأجل الحياة لا لأجل إظهار قدراته، هو خالق لأجل الخلاص لا لأجل الفراغ والفوضى... حتّى أنّ أحدًا غيره ليس موجودًا! فالظلام نفسه والشقاء ليسا بموجودين لو لم يسمح هو بوجودهما!

(نلاحظ أنّ النص في ٤٥: ٧ قويّ جدًّا لأنّه يؤكّد، بأنّ الله هو الذي خلق الظلام وهو الذي خلق الشّقاء.

٣- الله القدّوس

من قراءتنا لسفر أشعيا نجد أنّ لقب "قدّوس" المعطى لله يتضمّن ارتباطًا وثيقًا بكونه الخالق والأوحد. فالقداسة كما نعرف هي الانفصال، التمايز، عدم الاتّصال بما هو دنس ونجس ومادي... إنّها السمو خصوصًا عندما نطلقها على الخالق لتؤكّد تساميه عن عالم البشر والمادة. هكذا في رؤيا أش في الفصل ٦ نجد لقب قدّوس قدّوس قدّوس ثلاث مرّات معطى لله بمقابل تأكيد النبي على نجاسة شعبه! ومع ذلك، فقداسة الله هي التي تدفعه إلى الاقتراب من الإنسان لإزالة نجاسته وتقديسه ورفعه... وهذا ما نجده بالضبط في ٤٣: ١٥: "أنا الربّ قدّوسكم خالق إسرائيل وملككم". الله إذًا قدّوس بكونه الخالق المتسامي، ولكنّه قدّوس أيضًا بكونه الملك "الفاتح في البحر طريقًا وفي المياه الطاغية مسلكًا" للخلاص (٤٣: ١٦).

إذًا ليس لقب القداسة لله لقبًا لسموّه فحسب بل هو لقب لعمله الخلاصيّ ومحبّته للبشر! فقداسته خلاصيّة لأنّها "تفصل" الإنسان عن أوثانه وتلصقه بإلهه وخالقه (أش ٤٩: ٧).

III- شموليّة الخلاص

مقدّمة

كما قلنا فإنّ اكتشاف قدرة الله الخلاصيّة التي لا يحدّها المكان والزمان من جهة وكون الإله الخالق القدّوس الذي صنع السماء والأرض ولا إله غيره من جهة أخرى، كان لابدّ له أن يُطوّر نظرة الأنبياء إلى موضوع حسّاس جدًّا وهو لاهوت الاختيار. فقبل ذلك كان هناك تيّار وطني كبير بين الشعب العبراني يعتبر الاختيار والعهد الإلهيّين بمثابة عطيّة لشعبه تميّزه عن الشعوب الأخرى وقد بالغوا في هذه النظرة حتّى احتقروا تلك الشعوب لأجل جهلها للإله الحيّ! ولكنّ الأنبياء والكتاب المقدّس قد وصلا إلى نظرة واسعة جدًّا عن الله وبدأا بإعلان الترابط المباشر بين ثلاثة:

فمن جهة أولى، هناك التأكيد على وحدانيّة الله الخالق والمخلّص، وهذه تجعل منه، من جهة ثانية، إلهًا للشعوب كلّها حتّى ولو لم تعرفه، وهذا بدوره يقود إلى الاستنتاج الثالث، أي أنّ اختيار إسرائيل لم يكن لأجل ذاته ولا كرمى لعينيه وحده، بل ليكون خادمًا للشعوب الأخرى، خادمًا بالشهادة لله وخادمًا في مساعدة الشعوب الأخرى للتعرّف إلى الله وعبادته. وهذا الفكر يجعلنا نؤكّد على خاصّتين من خصائص الخلاص الشمولي في أشعيا: ١- الخلاص المجاني (فصل ٥٥)، و٢-الخلاص الشامل (فصل ٥٦).

١- الخلاص المجاني: (أش ٥٥: ١-١٣)

أَيُّها العِطاشُ جَميعًا هَلُمُّوا إلى المياه والَّذينَ لا فِضَّةَ لَهم هَلُمُّوا آشتَروا وكُلوا هَلُمُّوا آشتَروا بِغيرِ فِضَّةٍ ولا ثَمَن خَمْرًا ولَبَنًا
حَليبًا [٢] لِمَاذا تَزِنونَ فِضَّةً لِما لَيسَ بِخُبْز وتَتعَبونَ بما لاشِبَعَ فيه؟ إسمَعوا لي سَماعًا وكُلوا الطَّيِّب ولتَتَلَذَّذْ بِالدَّسَمِ نُفوسُكم.
[٣] أَميلوا آذانَكم وهَلُمُّوا إِلَيَّ إسمَعوا فتَحْيا نفوسُكم فإِنِّي أُعاهِدُكم عَهدًا أَبَدِيًّا على الخَيراتِ الَّتي وُعِدَ بِها داوُد. [٤] هاءَنَذا
جَعَلتُه لِلشُّعوبِ شاهِدًا لِلشُّعوبِ قائِدًا وآمِرًا. [٥] ها إِنَّكَ تَدْعو أُمَّةً لم تَكُنْ تَعرِفُها وإِلَيكَ تَسْعى أُمَّةٌ لم تَكُنْ تَعرِفُكَ
بِسَبَبِ الرَّبِّ إِلهِك وقُدُّوسِ إِسْرائيلَ الَّذي مَجَّدَكَ. [٦] إِلتَمِسوا الرَّبَّ ما دامَ يوجَد أُدْعوه ما دامَ قَريبًا. [٧] لِيَترُكِ الشِّرّيرُ طَريقَه
والأَثيمُ أَفْكارَه ولْيَرجِعْ إِلى الرَّبِّ فيَرحَمَه وإِلى إِلهِنا فإِنَّه يُكثِرُ العَفْوَ [٨] فإِنَّ أَفكاري لَيسَت أَفْكارَكم ولا طرقُكم طُرُقي، يَقولُ
الرَّبّ. [٩] كما تَعْلو السَّمواتُ عنِ الأَرض كذلك طُرُقي تَعْلو عن طُرُقِكم وأَفْكاري عن أَفْكارِكم [١٠] لِأَنَّه كما يَنزِلُ المطَرُ
والثَّلجُ مِنَ السَّماء ولا يَرجِعُ إِلى هُناك دونَ أَن يُروِيَ الأَرض ويَجعَلَها تُنتِجُ وتُنبِت لِتُؤتِيَ الزَّارِعَ زَرعًا والآكِلَ طَعامًا [١١]
فكذلك تَكونُ كَلِمَتي الَّتي تَخرُجُ مِن فمي: لا تَرجِعُ إِلَيَّ فارِغة بل تُتِمُّ ما شِئتُ وتَنجَح فيما أَرسَلْتُها لَه.
[١٢] فإِنَّكم بِفَرَحٍ تَخرُجون وبِسَلامٍ تُعادون والجِبالُ والتِّلالُ تَندَفِعُ بِالهُتافِ أَمامَكم وجَميعُ أَشْجارِ الحُقولِ تُصَفِّقُ بِالأَيدي.
[١٣] مَكانَ العُلَّيقِ يَنبُتُ السَّروُ ومَكانَ القُرَّاصِ يَنبُتُ الآس ويَكونُ ذلك لِلرَّبِّ آسمًا وآيَةً أَبَدِيَّةً لا تَنقَرِض.

نفهم معنى وهدف النص الأساسي من خلال الآية ٣ حيث يؤكّد الله أنّ الإصغاء إلى حديثه والمسير نحوه يقود السامعين إلى الحياة، والسائرين في طريق الربّ إلى الخيرات المرتبطة بعهد الله مع شعبه وبخاصة من خلال الوعود المعطاة لداود. والسؤال الأوّل المطروح هو التالي: إلى ما يجب أن يسمع الذين يتوجّه الله إليهم في حديثه؟ وكيف يسيرون نحوه؟ إنّ الآيات ١-٢ تؤكّد من جهة أنّه يدعو السامعين إلى شرب الماء وشراء المأكول للارتواء والشبع من غير جهد أو حاجة إلى دفع المال، ومن جهة ثانية إلى التوقّف عن البحث عن الماء والخبز بأثمانٍ غالية مع أنّ ذاك الماء ليس مرويًّا وذاك الخبز لا شبع منه!

أوّلاً يبدو لنا أنّ هذه الدعوة في صيغتها الأدبيّة المحضة مأخوذة من دعوة التجّار والبائعين الذين كانوا يقفون على باب المدينة ليروّجوا لبضاعتهم! ولقد استعملت كتب الحكمة هذا الشّكل الأدبي في الدعوة لتبيّن كيف أنّ الحكمة (وصورتها كالمرأة) هي نفسها تقف على أبواب المدينة لتقوم بدعوة مماثلة ترغب من خلالها أن تعطي الناس لا أشياء ماديّة بل الحكمة وطريق الحياة السعيدة (راجع أم ٩ وسي ٢٤) والمعروف أيضًا أنّ البنية الأدبيّة لمثل تلك الدعوة قد استعملها الأنبياء أيضًا في دعوتهم الناس إلى التوبة

عن أعمالهم الشريرة التي أدّت بهم إلى الفساد والهلاك، وبالتالي إلى تغيير مسارهم والعودة إلى طريق الربّ وأعماله. هذه الدعوة تتطلّب التخلّي عن البحث عمّا لا حياة فيه وقبول عطايا الله ووعوده. وأنّ أهمّ ما يميّز هذه الدعوة هي صفتها المجانية المطلقة التي تضمنها بركة الله وخيراته الإلهيّة المباشرة التي لا حاجة إلى التعب للحصول عليها بل فقط إلى الإصغاء والإيمان والبدء بالمسير!

إنّ الدعوة موجّهة لإسرائيل ليؤمن بكلمة الله من جديد كونها هي الكلمة الوحيدة الفاعلة والحقّة التي تتحقّق بينما كلّ الكلمات الأخرى تزول ولا تتحقّق! والدعوة تهدف إلى إعلان هذه الكلمة للشعوب الأخرى أيضًا! فلا يحتفظ بها إسرائيل لنفسه وكأنّها أعطيت له تمييزًا بل لأجل أن يكون شاهدًا (آ ٤) وقائدًا بمعنى القيادة نحو الله. وعندئذٍ فالأمم ستبحث عن شعب الله للانتماء إليه لا لأجل نفسه بل لأجل الله القدّوس الذي في وسطه. فالشاهد ينال المجد (انتماء الشعوب إليه) لا من نفسه بل من مجد الله الذي قبله. تأكيدًا لكلّ هذه الدعوة لاحظ المثل الرائع الذي يعطيه عن الشتاء (وهو يُشبَّه بالكلمة) والذي لا يعود إلى مصدره (ككلمة لله) إلاّ بعد أن يُخصب الأرض (أي يعطي الثمار).

٢- الخلاص الشامل: (أش ٥٦)

هكذا قالَ الرَّبّ: حافِظوا على الحَقِّ وأَجْروا البِرّ فقَدِ آقتَرَبَ خَلاصي أَن يَجيءَ وبِرّي أَن يَتَجَلَّى. [٢] طوبى لِلإِنسانِ العامِلِ بِذلك ولِآبنِ آدَمَ المُتَمَسِّكِ بِه الَّذي يُحافِظُ على السَّبتِ فلا يَنتَهِكُه ويَحفَظُ يَدَه مِن فِعلِ كُلِّ شَرّ. [٣] لا يَقُلِ آبنُ الغَريبِ الَّذي آنضَمَّ إِلى الرَّبّ: ((إِنَّ الرَّبَّ يَفصِلُني عن شَعبِه)) ولا يَقُلِ الخَصِيّ: ((ها أَنا شَجَرَةٌ يابِسَة)). [٤] فإِنَّه هكذا قالَ الرَّبُّ لِلخِصْيان: الَّذينَ يُحافِظونَ على سُبوتي وُيؤثِرونَ مارَضيتُ بِه ويَتَمَسَّكونَ بِعَهْدي [٥] أُعْطيهم في بَيتي وداخِلَ أَسْواري نُصُبًا وآسمًا خَيرًا مِنَ البَنينَ والبَنات وأُعْطي كُلَّ واحِدٍ مِنهم اِسمًا أَبَدِيًّا لا يَنقَرِض. [٦] وبَنو الغَريبِ المنضَمُّونَ إِلى الرَّبِّ لِيَخدُموه وُيحِبُّوا آسمَ الرَّبِّ ويَكونوا لَه عَبيدًا كُلُّ مَن حافَظَ على السَّبتِ ولم يَنتَهِكْه وتَمَسَّكَ بِعَهْدي [٧] آتي بِهم إِلى جَبَلِ قُدْسي وأُفَرِّحُهم في بَيتِ صَلاتي وتَكونُ مُحرَقاتُهم وذَبائِحُهم مَرضِيَّةً على مَذبَحي لِأَنَّ بَيتي بَيتَ صَلاةٍ يُدْعى لِجَميعِ الشُّعوب. [٨] يَقولُ السَّيِّدُ الرَّبّ الَّذي يَجمعُ مَنفِيِّي إِسْرائيل: سأجمعُ آخَرينَ أَيضًا إِلى مَجْموعيه. [٩] هَلُمّي

يا جَميعَ وُحوشِ الحُقولِ إلى الأَكْل ويا جَميعَ وُحوشِ الغاب [١٠] فإِنَّ رُقَباءَه كُلَّهم عُمْيانٌ لا عِلمَ لَهم وكُلَّهم كِلابٌ بُكْمٌ لا يَستَطيعونَ النُّباح حالِمونَ مُضطَجعونَ مُحِبُّونَ لِلنَّوم. [١١] كِلابٌ نَهِمَةُ الأَخْلاقِ لا تَعرِفُ الشِّبَع رُعاةٌ لا يَعرِفونَ التَّمْييز كُلُّهم يَميلونَ إِلى طَريقِهم وكُلُّ واحِدٍ إِلى مَكاسِبِه عن آخِرِهم. [١٢] هَلُمّوا آتي بِخَمرٍ ونَمتَلِئُ مِنَ المسكِرِ ويَكون الغَدُ كاليَومِ، بل أَعظَمَ مِنه كَثيرًا.

هنا أيضًا نشير دون أن نتوقّف كثيرًا، إلى أهميّة هذا النص في التعبير عن نضج إيمان إسرائيل القديم وفهمه من خلال النبي أشعيا أنّ الخلاص ليس له وحده بل لكلّ الشعوب. هنا أيضًا يبدو أنّ إطار الخلاص هو الإيمان الذي اختبره شعب الله (الحفاظ على السبت والامتناع عن الشرّ: ٢ب). والعلامة الأكيدة لهذا الخلاص الشامل هو في كلمتي "غريب" و"خصيّ". فالغريب هو كلّ من لم ينتمِ إلى شعب إسرائيل بالجسد ولا هو من نسل يعقوب! والخصيّ هو من ينقرض اسمه من شعب الله حتّى ولو كان ينتمي إليه جسديًّا!

فالذين لم يولدوا في شعب الله من جهة، والذين لن يبقى لهم اسمًا بسبب عجزهم عن التناسل من جهة أخرى، سيكونون إلى الأبد من شعب الله إنْ هم انتموا إلى الربّ (آ ٣ و٦) وحافظوا على سبته أي حافظوا على كلمته! ويؤكّد النص هذا الخلاص أيضًا وأيضًا في الآية ٧ د: "لأنّ بيتي بيت الصلاة يدعى ولجميع الشعوب". ويؤكّد مرّة أخرى لمن يعتقدون أنّ الشموليّة تعني فقط شتات شعب إسرائيل بين الشعوب فيقول: "سأجمع آخرين أيضًا إلى مجموعيه" (آ ٨ب). بل قُلْ أنّ النص يميل إلى انتقاد شديد لأولئك الرؤساء (الدينيّين والزمنيّين) الذين لا يميّزون هذه الحقيقة الجديدة في أنّ الله يريد الخلاص لكلّ الشعوب، وهم لا يهتمّون سوى بأنفسهم ولا يعرفون التمييز (آ ١١).

IV- خلاصة مسيحيّة وراعويّة

لا أعتقد أنّ أي "كتاب مقدّس" لأي شعب أو دين قديم أو حديث يذكر أنّ إلهه قد اختار له "مسيحًا" مخلّصًا من بين قادة الشعوب التي استعمرت أرضه! وإذا كان الكتاب المقدّس قد وصل إلى

مثل هذا النضوج الإيماني عبر تاريخه الطويل وبفضل كلّ أنبيائه وقدّيسيه فهذا أيضًا لأنّه الكتاب الوحيد الموحى به من الله. وكما قلنا فإنّ الفضل الأوّل في هذا النضوج الإيماني يعود إلى وحي الله عن نفسه أنّه الإله الأوحد، ولأنّه كذلك فكلّ الناس هم خليقته وهو قادر أن يدعو من يشاء لتحقيق مشروعه الخلاصي في التاريخ.

طبعًا لن يصل هذا النضوج الإيماني إلى كماله إلاّ بحدث التجسّد الذي كشف لنا فيه المسيح ابن الله بأنّ الله هو "الآب" خالق الجميع والذي يشرق شمسه على الأشرار والأخيار؛ والمسيح الراعي هو نفسه أعلن أنّ رسالته الخلاصيّة والتحريريّة لا تنحصر في شعب الله وحده بل في شعوب أخرى كقوله "أنا الراعي الصالح... ولي خراف أخرى ليست في هذه الحظيرة.." (يو ١٠). المسيح أظهر أن كلّ الناس هم أولاد لأب واحد هو الله الواحد؛ وإذا كان هو الابن الوحيد المولود قبل كلّ الدهور، فإنّ رسالته هي في دعوة كلّ الناس ليصبحوا أبناء الله بالتبنّي. من هذه الحقيقة فهمت الكنيسة إذًا أنّ كون الله واحدًا يعني أنّه لا وجود لتمييز بين إنسان وآخر، لا بالعنصر ولا بالقوميّة ولا بالمركز الاجتماعي إلخ... بل كلّ الناس إخوة وأبناء للآب الواحد. من هنا فإنّ قبول الآخر بكونه مختلفًا عنّي هو نتيجة حتميّة للإيمان المسيحي، والحوار مع الآخر الذي يفكّر بطريقة مغايرة لي هو من بديهيّات الإيمان المسيحي. طبعًا، أن أؤمن أنا بالآب وأن يكون الآخر في جهل تام له وللمسيح، فهذا يحتّم عليّ أن أشهد لإيماني: " الويل لي إن لم أبشر بالإنجيل" ! ومع ذلك، فهذه الشهادة لا تهدف بالدرجة الأولى إلى اجتلاب الآخر إلى ديني وضمّه إلى جماعتي انطلاقًا من رغبة أنانيّة بإكثار عدد الذين يؤمنون مثلي. فمثل هذا التفكير معاكس للحبّ الذي يدفعني إلى الشهادة ورغبة إنارة الآخر وإغنائه بمعرفتي وإيماني؛ رغبة الاستجلاب تأتي من الخوف من الآخر ومن رغبة إفنائه لأنّي أعتبره تهديدًا لوجودي. وليس العمل لاستجلاب الآخرين ببعيد عن رغبة قتلهم! بالعكس، فالشهادة هي رغبة صادقة بإيصال الخير الذي عندي ومشاركة الآخر بما لديّ مع ترك الحريّة التامّة له أن يستفيد من خيراتي أو أن يتمسّك بأفكاره وآرائه. محبّتي للآخر تنبع من محبّة

الآب له. من هنا فالذين يدّعون الإيمان بالله الواحد ثمّ يكفّرون الناس ويدينونهم ويدّعون الحقّ بقتلهم باسم الله، هم لا يعرفون الله وليسوا سوى عبّاد أنفسهم وأفكارهم وتعصّبهم: ليست هذه هي المسيحيّة على الاطلاق.

باختصار يمكننا القول أنّ الدعوات الصادقة إلى تلاقي الناس وانفتاحهم على بعضهم البعض هو عمل يحثّ البشر على الاعتراف باختلافهم وفي الوقت عينه على العيش بسلام واحدهم مع الآخر. فالله يرغب بخلاص الإنسان لا بموته! والإنسان الذي يدّعي معرفة الله هو الذي عنده نفس الأفكار ونفس الرغبات: لا يحتكر الله لنفسه، بل يبحث عن خير الناس أجمعين وأفضل شهادة هي شهادة المحبّة والوحدة التي تعطيها الكنيسة في داخلها والتي تحتاج أن توصلها إلى العالم كلّه. المسيحيّون في العالم هم الشهود على هذه الحقيقة، ولكن يحدث أنّهم يقعون هم أيضًا في فخاخ الغضب والكراهية ونبذ الآخرين وتصنيفهم ودينونتهم؛ لهذا وجب إعادة تبشير المسيحيّين في كلّ مكان، ليكتشفوا عظمة إيمانهم وليساهموا في بناء بشريّة قائمة على الحبّ والسلام.